كفاءة الخطاب الاقناعي لبطلة كربلاء الحوراء زينب عليها السلام

أ . ليلى مناتي محمود

كلية اللغات/ جامعة بغداد

laylamnite@colang.uobaghdad.edu.iq

الملخص:

في محاولة لنا لإخضاع خطب السيدة زينب عليها السلام، إلى تحليل البنية العميقة، وشكل بناء الخطاب، وتركيب وحدات النص، اكتشفنا وجود كفاءة في الخطاب الاقناعي، بكل ما أوتي من ادوات خطابية؛ لتحقيق الإنجاز باستمالة المخاطب والتأثير فيه، بنيّة تحويل وجهة تفكيرهم داخل مسار تواصلي غير إلزامي؛ مرتكزة إلى إرجاع الناس إلى الاعتقاد بحرمة محمد وآل بيته فضلاً عن ذلك فقد نجحت في اكمال رسالة اخيها الحسين عليه السلام، في حفظ الدين، وإلحاق الفشل بيزيد واعوانه، وصولاً إلى ادخال حالة الذعر على القادة والجند، مستعينة بالله سبحانه وتعالى والاعتداد به.

الكلمات المفتاحية: كفاءة الخطاب الاقناعي، الوحدات النصية المشكلة للخطاب، خطب السيدة زينب عليها السلام.

The Efficiency of Persuasive Discourse for the Heroine of Karbala, Lady Zainab (peace be upon her)

Professor. Leila Manati Mahmoud

University of Baghdad - College of Languages

laylamnite@colang.uobaghdad.edu.iq

Abstract

In an attempt for us to subject the sermons of Sayyida Zainab (peace be upon him), to an analysis of the deep structure, the form of the discourse structure, and the structure of the text units, we discovered the existence of an efficiency in persuasive discourse, with all its rhetorical tools; To achieve achievement by acquiring and influencing the addressee, with the intention of transforming their thinking into a non-compulsory communicative path; It is based on bringing people back to the belief in the inviolability of Muhammad and his family. Moreover, she succeeded in completing the message of her brother Al-Hussein (peace be upon him), in preserving the religion, and inflicting failure on Yazid and his aides, leading to the introduction of a state of panic to the leaders and soldiers, with the help of God Almighty and reverence for Him.

Keywords: Persuasive Discourse Efficiency, Textual Units in Discourse, Speeches of Lady Zainab (peace be upon her).

المقدمة

يقّر علم النص أنه في كل خطاب توجد ركيزتين اساسيتين أثناء ممارسة التواصل، هما المرسل والمرسل إليه باتفاق وتواطؤ بينهما من جهة، وبين افراد المجتمع من جهة أُخرى، ويجب أن تُعالج الملفوظات بمعلومات مستقاة من الواقع الخارجي. على أن يُنظر إلى هذه العلامات نظرة تهتم بالجانب الاستعمالي للغة في الطبقات المقامية المختلفة، فتدرس اللغة كون كلامها محدداً يصدر عن متكلم، ويتوجه إلى مخاطب بلفظ محدد.

وفي محاولة لإخضاع خِطب السيدة زينب عليها السلام، إلى تحليل البنية العميقة، وشكل بناء الخطاب، وتركيب وحدات النص، اكتشفنا وجود كفاءة في الخطاب الإقناعي، بكل ما أُوتي من ادوات خطابية لتحقيق الإنجاز باستمالة المخاطب والتأثير فيه معتقدة بيقين أنها سوف تنجح.

والسيدة زينب بنت علي عليه السلام، بوصفها مرسلا واقعيا تحاول إخضاع الواقع إليها بمن فيهم المخاطبون ذوو السلطة العدائية في هذا المقام، لأنها استطاعت أن ترفع الغبار عن الحقّ والحقيقة، فكانت تخاطب العامة من الناس بالخطاب العقلي، فلا يجد الإنسان السوي سوى الانجذاب لعقيدة الإمام الحسين عليه السلام، والتمسك بها ونبذ عقيدة الآخر والتبرؤ منها، فضلاً عن تتابع إلحاق الفشل بالخصم يزيد وأعوانه.

وندرك كفاءة الخطاب الإقناعي لبطلة كربلاء، من خلال استيعاب قطبي الاتصال من عبر دراسة تحليلية لكل الوحدات النصية المشكلة للخطاب. إن السيدة زينب عليها السلام، كانت أمينة على وحي الله، ودين الله، ورسالة جدها رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى الخلق فكانت نعم الامينة، إذ أدت الرسالة على أكمل وجه، وقفت مع أخيها أبي الاحرار في خندق واحد، لإعلاء كلمة الدين أمام المخطط الأموي الرامي إلى اجتثاث الإسلام من جذوره، بإقصاء أهل البيت عليهم السلام، عن المشروع المحمدي التبليغي، فأكملت مسيرة إمام زمانها؛ لتصبح رائدة الإعلام الحسيني بكفاءة خطبها، لتعيد من خلالها موازين العدل الالهي كأبيها علي عليه السلام.

التمهيد:

تُعدّ كفاءة الإقناع مطلباً رئيساً في دراسة الخطاب الذي أضحى يشكل اليوم نافذة مطلة على حقل الأدب، وذلك لما لها من أهمية بالغة وقيمة مضاعفة، وتكمن هذه القيمة للقصدية التي يراد بها التأثير، وعلى هذا الاساس لا يمكن أنّ يُعد خطاباً ما حقيقياً إلاّ إذا كان موجهاً للغير ويراد به التأثير، وثمة جوهر الخطاب. وقد اشار ارسطو إلى أهمية كل من الجدل والخطابة وحاجة المجتمع إليها، بقوله:» إنّ الناس جميعاً يشاركون بدرجات متفاوتة في كليهما(أي الجدل والخطابة)؛ لأنهم جميعاً إلى حدّ ما يحاولون نقد قول، أو تأييده، والدفاع عن انفسهم، أو الشكوى من الآخرين» (ارسطوطاليس: الخطابة، ترجمة ابراهيم سلامة، ١٩٥٣ م: ٢٢-٢٣).

فالخطاب الإقناعي يهدف صاحبه من ورائه إلى جعل المتلقي يُقرُ بصحة مقولة أو قضية معينة، ومن ثم يؤثر في فكر المتلقي، وحمله على تعديل رؤيته أو موقفه، أو تعديل سلوكه بالاستناد إلى عمليات عقلية عديدة تعتمد على التفكير والمنطق من جهة، وعلى توظيف مهارات الخطاب اللغوية والبيانية من جهة أُخرى.

فالمحاورة الجدلية أكثر ارتباطاً بالقضايا الفكرية والعقدية، ويُعدُّ السؤال والسائل في هذا المجال أهمّ من المُجيب؛ لأنّه انطلاقاً منهما تتحدد معالم الاشكالية المطروحة (محمد سالم امين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ٢٠٠٨ م: ٥١). وقد أولى الجاحظ عناية كبيرة بالخطاب الإقناعي القائم على» إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم وعلى اقدار منازلهم» (ابو عثمان عمرو بن بحرالجاحظ، البيان والتبيين، ١٩٤٨ م، ج١: ٦٦)؛ وذلك من أجل حصول الوفاق بين أطراف الخطاب، وهو إقناع تقدم فيه الغاية(الإقناع) على الوسيلة(اللغة) وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها بحسب المقامات والاحـوال (محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، ع (٥)،١٩٩١ م،:١١).

ويتشكل الخطاب الإقناعي على وفق الاستراتيجية التي تحقق الهدف والغايات المتوخاة من عملية التخاطب، فالفصاحة هي « ملكة جعل الأخرين يشاركوننا آراءنا، وطريقة تفكيرنا في شيء ما، وكذلك إيصال عواطفنا الخاصة إليهم، وجماع القوى أن نجعلهم يتعاطفون معنا. ويجب أن نصل إلى هذه النتيجة بغرس أفكارنا في أذهانهم بوساطة الكلمات، وذلك بقوة تجعل افكارهم الخاصة تنصرف عن اتجاهها الأولي، لتتبّع أفكارنا التي ستقودها في مسارها»| (محمد العمري، اسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣ م:٣٣).

ونظراً للارتباط الكبير الناتج عن التلازم بين الإقناع والبلاغة في العصر الحديث؛ لذلك فإن الإقناع هو» قصد المتحدث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري والعاطفي عند المتلقي» (بليث، البلاغة والاسلوبية نحو تحليل سيمائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، ١٩٨٩ م:٦٤)، وهو المحصلة لعمليات فكرية وشكلية يحاول فيها أحد الطرفين التأثير في الآخر، وإخضاعه لفكرة ما. أما الإقتناع فهو يأتي بمعنى قبول الشيء والرضا به، ويطلق على اعتراف الخصم عند إقامة الحجة عليه، وبذلك يمكن القول إن الخطاب الإقناعي هو كل خطاب» يهدف بشكل محدد إلى التأثير في الاتجاهات والاعتقادات أو السلوك، كما أنه القوة التي تستعمل؛ لتجعل شخصاً يقوم بعمل ما عن طريق النصح والحجة والمنطق» (ابراهيم ابو عرقوب، الاتصال الانساني ودوره في التعامل الاجتماعي، ١٩٩٣ م:١٨٩).

١. كفـاءة الإقْنـاع عـن طريـق التفاعـل الحـواري:

ويتشكل التفاعل الحواري من خلال التفاعل بين الأنا والأخر في سياق التجاوز المعرفي، أي المشاركة في الفعل ورد الفعل حول مضامين معينة، والتواصل الذي يعني الحالة التي يصير إليها الحوار بين طرفين على الأقل (محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل

التواصلي دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية:١٥)

ويقع التفاعل التواصلي في صلب مفهوم الخطاب على تبادل النقد المعرفي بين طرفي الخطاب وما يصدر عن كلا الطرفين من فعل ورد الفعل. فضلاً عن ذلك توظيف تقانات مختلفة من تقانات الحجاج من أجل التغلب على الآخر، مفيدين من طاقات اللغة وقدرتها على توصيل مقاصد المتكلم في التعبير عن ذاته وإظهارها امام الأخر. فالحوار مهم جداً في الخطاب، وهو المحرك الأساس للتفاعل التواصلي بين طرفي الخطاب، وضروري جداً في تسجيل ما يصير إليه من تنازع وجدل وشعور بالتفوق أو الخذلان، كما أنّه يكشف عن النزعة النقدية عند الطرفين: الأنا والآخر.

يبدأ خطاب السيدة زينب عليها السلام أول مرة، حين تواجه الجثمان المقدسَّ لسيد الشهداء، وقد مزقّه العتاة برماحهم، نراها تقف امام الحسين الشهيد عليه السلام، صامدة صابرة، وهي تنادي:

وا أخاه، واسّيداه، وا أهل بيتاه، ليت السماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٢٣٣).

بالرغم من الحالة المأساوية التي كانت عليها، فقد استأنفت الحديث، فاندفعت تشهر سلاح المظلومية لتصوبه تجاه عمر بن سعد، فأحالت سروره بقتل الحسين عليه السلام، إلى حالة من الهلع والخوف، قائلة:

يا بن سعد! أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٢٣٣)

فقد لجأت السيدة زينب عليها السلام، إلى الاستفهام الذي خرج إلى اللوم والتقريع، لحمل عمر بن سعد على « الإقرار والاعتراف» (ابن هشام الانصاري، مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، ٢٠٠١ م، ج ١: ٩٥)، بالجريمة الفظيعة التي ارتكبها، أي أن هذا الشكل من الخطاب غايته الوصول إلى المعرفة الحقيقة وينجز المتكلم عملاً حجاجياً موجهاً وذلك من خلال تقديم الأخر جواباً نهائياً يقر من خلاله النتيجة، فقد استعملت السيدة زينب عليها السلام، اداة واحدة للسؤال وهي الهمزة، وهي اداة حجاجية إقناعية، تحقق ضرب التوازن بين المسائل والمسؤول وذلك من خلال انحدار المسؤول من قيمة الاستعلاء إلى التقهقر والاندحار امام قوة الاجابة بنعم أو لا.

من هنا يبدأ انتصار السيدة زينب عليها السلام، حينما اطرق برأسه ولم يعرف بماذا يجيبها، فقد افسدت عليه لذة النصر وسكبت قطرات من السم الزعاف له ولأعوانه، وأثبتت لهم أنهم ضعفاء مهزومون وإن توهموا النصر.

٢. كفاءة الإقناع بالبرهان:

إن القدرة على التواصل بين المتخاطبين، قد لا تكون على درجة كبيرة من الانسجام والاتساق، هذا لكون العملية التواصلية ذات ثغرات دلالية أو معرفية قد يستثمرها الأخر من أجل السيطرة أو الرفض والتمرد، وعليه فإن العملية التواصلية لابد لها من وسائل الإقناع، فهي شرط وإجراء ومقولة من مقولات

الكفاءة الكلامية التي تقوم» على تصوير أشكال سياق الكلام التي تساعد في تحديد القضية المعبر عنها بما تعطيه الجملة» (علي بلبع، التداولية البعد الثالث في سيميو طيقا موريس، ع(٦٦)، ٢٠٠٥ م:٤٢).

وتستقيم وظيفة الإقناع حسب العلاقة التفاعلية بين الخطيب والمدونّة الخطابية، فعملية الإقناع تقوم على تقديم مادة دلالية مشحونة بطاقة تأثير واستمالة عقليين مع فتور نسبي في درجة الاستمالة النفسية الانفعالية، وهو ما يكشف عن ارتكاز الجانب الإقناعي فيها على البرهنة والعمليات الاستدلالية المكنة، هذه العمليات التي تقع في مستوى أنماط مختلفة للبرهنة من خلال ما هو عقلي وديني وخبراتي متعلق بتجربة المستدل ومرجعياته الثقافية واللغوية والمعرفية وغيرها من المرجعيات التي يرتكز إليها اثناء الاستدلال والحقيقة إنّ هذه الانماط المختلفة للبرهنة تشتغل في فلك ما هو جدلي أو في ما هو خطابي؛ لذلك فإن الإقناع في الخطبة لا يعدو أن يكون إقناعاً جدلياً ؛ يخضع إلى جملة من الاحالات المرجعية، وهذا النمط من الخطاب يتكشف في قول السيدة زينب عليها السلام، وهي تندب أخاها بكلمات في ذروة الفصاحة والبلاغة، تقرؤها الاجيال قرناً بعد قرن، وأُمة بعد أُمة؛ لإيقاظ الشعور العام بتلك الجناية العظمى، التي صدرت من أرجس عصابة على وجه الأرض بحق أخيها الحسين عليه السلام، فتقول:

«يا مُحمداه، صلى عليك مليك السماء، هذا حُسين مُرملٌ بالدماء، مُقطَّع مسلوب العِمامة والرداء، محزوز الرأسِ من القفا، ونحن بَناتُك سَبايا»إلى الله المشتكى، وإلى مُحمد المصطفى، وإلى علي المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء، وإلى حمزة سيّد الشهداء.

يا مُحمداه! هذا حسينٌ بالعراء، تسفي عليه ريحُ الصبا، قتيل أولاد البغايا.

واحُزناه! واكرباه عليك يا أبا عبد الله بأبي مَن لا هو غائب فَيُرتَجى، ولا جريح فَيُداوى. بأبي المَهموم حتى قضى.

بأبي العطشان حتى مضى.....» (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٢٦٥)

إن بطلة كربلاء تبدأ بتوصيف الأشياء في كليتها وعمومها على سبيل تضمين التخصيص في الحكم الذي أصبح خصوصية لتلك الأشياء، فلا يقوم الاستدلال بالنسبة للكل إلاّ وقد حصل منطقياً الاستدلال بالنسبة للجزء؛ فإن نداء السيدة زينب عليها السلام، إلى جدها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، له إيقاعية هادفة غرضها لفت الانتباه، إلى مكانة الإمام الحسين عليه السلام وعظمته، عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتجلى ذلك في قوله: « الحسن والحسين ابناي، من أحبّهما أحبّني، ومن أحبّني أحبّ الله، ومن أحبّه أدخله الجنّة، ومن أبغضهما أبغضني، ومن أبغضني أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله النار» (محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ٢٠٠٢، ج٣:١٦٦)، وكان لسان حالها يقول: يا رسول الله لو كنت حاضراً في كربلاء، لرأيت ماذا صنعت أُمّتك بولدك الحسين عليه السلام، حين داست على كل القيم والمبادئ،

وأدارت ظهرها لك يا رسول الله ولأحاديثك، وكأنهم وضعوا أصابعهم في أذانهم حتى لا يسمعوا كلام الله تعالى:» وإنّي كُلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في أذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا» (سورة نوح: ٧)، فهذا حسينك قُتِل عطشاناً مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، بل تمادوا في حقدهم فقطعوا رأسه نكاية به وبُغضاً لأبيه، ولجدّه رسول الله ﷺ.

والواقع أن السيدة زينب لم ترد بهذا التوصيف إلاّ الإعلان عن بداية مشروع نصّه القائم على بلاغة الخطاب الإقناعي والبرهاني، معتقدة بما أوعزته المنظومة الإبداعية وكذا النقدية من أهمية هذا المطلع أو الاستهلال يعد من العتبات النصية التي أولتها الدراسات الحديثة عناية فائقة، وهي تحاول أن توجّه خطابها الوجهة التي ترتضيها والغاية والمقصد عندها منذ البداية، تخسر المعركة، ولكن تربح الحرب، فلديها بُعد نظر أبعد من ساحة المعركة، لأنها صيرت من يوم مقتل الحسين عليه السلام، معاول هدمٍ تسلط على يزيد واتباعه. وشبيه بالخطب السابقة ساقت السيدة زينب عليها السلام، خطبها في الكوفة، حتى بدت خطبها تلك هي بمثابة المفاصل النصية التي تضمن التعالق بين وحداتها، وتحفظ بذلك مسار الإقناع فيها، فتقول:

ويلكم يا أهل الكوفة!

أتدرون أيّ كبدٍ لرسول الله فريتمُ؟!

وأيّ كريمةٍ لهُ أبرزتُم؟!

وايّ دَمٍ لهُ سَفكتُم؟!

وأيّ حُرمةٍ له هتكتُم؟!

لقد جِئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فَقماء خرقاء

شوهاء، كطِلاع الأرض ومِلءِ السماء

أفعجبتم أن مَطرت السماءُ دماً، ولعذابُ الآخرة

أخزى، وأنتم لا تنصرون (محمد كاظم القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٣٤٨).

إن المشابهة في الخطبتين السابقتين لا تكمن في الصيغة الدلالية للتركيب بقدر ما تكمن في صيغة عرض هذا التركيب، وهي صورة الإقناع الجدلي، فبطلة كربلاء إنما أرادت مخاطبة فئات مختلفة من العوام من أهل الكوفة، عبر تصعيد الوظيفة الإقناعية وتفعيل التجاوب العقلي القائم على الفهم والادراك، فتستعمل تقنية الاستفهام، لتطرح الأسئلة لمحاصرتهم، والزامهم على الإجابة والإقرار بالمقتضيات الناشئة عن قتلهم لابن بنت رسول الله(صلوات الله عليهم)، وبهذا تجعلهم يسهمون في انتاج الحُجة، بأنهم شر طبقات البشر فهم عملاء بني أُمية، وأرجس جميع الأمم. فالذين أراقوا دم الإمام الحسين عليه السلام، هم في الواقع قد أراقوا دم رسول الله ﷺ، وسبي كريماته وبناته والهجوم عليهن في خيامهن.. بكل وحشية! فالذي قصدته السيدة زينب أنهم الأمة الوحيدة من بين الأمم التي آمنت بنبيها ثم انقلبت عليه فقتلت أهل بيته، وهذا خلاف سير الأمم.

٣.الكفـــاءة المعـــرفيـــة بالبرهـــان:

ترتسم الكفاءة المعرفية في قدرة الخطيب، واستعداده المعرفي للمواجهة والانطلاق مما يحوزه من معارف سابقة، تجعله محل قبول لدى الجمهور المتلقي، ولتحقيق هذه الكفاءة لابد من توافر الشروط المؤدية إلى نجاحها، وهي شروط ذات صلة بالمضمون المعرفي في حد ذاته، والحديث هنا سيكون منفصلاً عن الذات الفاعلة أو الفعل الإجرائي وإنما سيكون محدداً بالقيمة المعرفية المكتسبة وخصوصيتها الدلالية:

٣,١. المسوَّغات المنطقية:

تعتمد على تحديد القول وتوزيعه، و» على إظهار أنّه أكثر كفاءة منه وأجدر بتبوء مكانة لا يطالها المنافس أو الخصم» (محمد الناصر العجمي، اجتياز الحدود في مسائلة مفهوم الخطاب السجالي، ٦٦:١٠١٠)؛ لأن المقدرة المعرفية مبينة بطريقة أفقية واضحة» بحضور مكيفات التلفظ، منها الأوامر والاستفهام والتلاعب بالضمائر» (محمد الناصر العجمي، اجتياز الحدود في مسائلة مفهوم الخطاب السجالي: ٧١). فإن المقولات الإقناعية ذات الطابع المنطقي الاستدلالي، تزيد الكفاءة القولية مما يمنح الكفاءة المعرفية إطاراً خصباً للتواصل، أو لنقل قدرة إضافية على تحقيق الإقناع، فخطب السيدة زينب عليها السلام، في حقيقتها شيء من هذا الكلام البرهاني بما تقدمه من مسوغات منطقية تمسك النص من اوّله إلى آخره، وتجعله يشتغل ضمن نسق مرجعي واحد هو في الغالب النسق المرجعي العقلي القائم على عناصر الفهم والتحليل والادراك والاستدلال، ومن ذلك خطبتها عليها السلام، في مجلس الدعيّ ابن الدعيّ؛ عندما صرح بالحقد والعداء لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بشماتة ولؤم نفس ودناءة اصل:كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

فشرعت بطلة كربلاء في مخاطبته:

ما رأيتُ إلاّ جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتلُ، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتُحاجون إليه وتختصمون عنده، فانظر لمن الفلج يومئذٍ، ثكلتك أُمك يا بن مرجانة!! (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٣٤٨) فإن نص الخطبة يحفل بجملة من التشكيلات اللغوية المحيلة على هذا النوع من الاستدلال، حينما بدأ في منطقها التلازم بين مفهوم الجمال والتوحيد؛ ليتجلى مصداق الوحدانية لله تعالى في حركتها الاصلاحية لتلك النفوس التي تعرت بقتلها ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مع أهل بيته، ويتجلى ذلك في قولها(ما رأيت إلاّ جميلاً)، فكل ما يصدر عن الله سبحانه وتعالى هو جميل. نعم أن الله عز وجل كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، إذ لابد لهذه الأبدان من الموت، لكنك يا ابن مرجانة المسؤول عن فعلتك، فأين ستذهب يا ابن مرجانة حينما يجمع الله بينك وبين الحسين وأهل بيته؟! ألست القائل بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي صنع هذا؟! وهنا تبدي السيدة زينب عليها السلام، نيّة ضمنية في إيصال القاعدة الاستدلالية إلى ابن مرجانة، ومن يشهد هذه المعركة الفكرية من قادة الحكم، فتكشف

مثل هذه القضية وتسأله مرة أُخرى: فماذا ستقول له حينما سيجمعك مع هؤلاء المقتولين للتخاصم؟ وبهذا استطاعت عقيلة بني هاشم تقويض فكر بني امية الهدام واصلاح البنية الفكرية للمسلمين، فليس النصر ما قام به الجند من سفك دماء آل محمد وتقطيع الرؤوس الزكية بل النصر بما يحكم به الله وهو أعدل الحاكمين.

٤. الكفاءة الايدلوجية:

يُعدّ الوعاء الأيديولوجي وعاء الخطيب الاساس، فكل توجه ايديولوجي مهما كانت خصوصيته هو مطلبه الأول والأخير، واحتضان الآخر داخل هذا الوعاء أكثر ما يتطلع إليه الخطيب» من جهة امتلاك الكلام الجميل هو على نحو من الانحاء السيطرة على الآخرين وإخضاع فكرهم بجملة من الاستدلالات الإقناعية.

لا يحوز الوعاء الايديولوجي في داخله الكفاءة الكلامية والكفاءة المعرفية فقط، وإنما إيمان الخطيب بكل تلفظه، وقد يكون ذلك في شكل إيماءات أو إشارات لغوية وغير لغوية، حتى يستطيع تمرير الشحن الايديولوجية للمجموعات الاجتماعية، وإن اختلفوا من حيث الانتماء والمبادئ، فيحرص على تقديم خطابه داخل إطار قولي عالي القيمية... او ما يُعرف بلعبة اللغة عند كاترين كبربلات اوركيوني (كاترين هالبيرن، الهوية(الفرد، الجماعة، المجتمع)، ترجمة ابراهيم صحراوي، ٢٠١٥م: ٣٥٩)، ويتحدد من خلال رصد الموضوع المحدد له انطلاقاً من « المحادثات التي تتميز بطابعها الصدامي» (نبيل منصور، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، ٢٠٠٧ م:١٣٣)، لا يهم شكل الصدام الحاصل أو نوع المحادثة الشديدة بين الطرفين، فكل هذه التعارضات قد تمنحه بعداً تصاعدياً بحيث يبقى بمنأى عن اي انزلاق لغوي أو دلالي، فالسيدة زينب عليها السلام استطاعت أن ترفع الغبار عن الحقّ والحقيقة، وتُعرّف الباطل بكل صراحة ووضوح، حين رأت يزيد (لعنة الله عليه) يضرب ثنايا أبي عبد الله بقضيب، امام موقف عظيم كهذا، لابد أن تسجل شهادتها عليه للتاريخ.. فتصيح هاتفة من أعماق قلبها في خطبتها: « يا حُسيناه! يا حبيب رسول الله، يا ابن مكّة ومنى، يا ابن فاطمة الزهراء سيدة النساء، يا ابن محمد المصطفى» (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٣٩٧).

إن هذه الصرخة من فم السيدة زينب عليها السلام، جاءت لتبين خطورة الجريمة التي ارتكبها يزيد اللعين، فإنه بفعلته تلك استهدف رسول الله وابنته الزهراء(صلوات الله وسلامه عليهما)، عبر قتله أبي عبد الله عليه السلام، الذي يمثل امتدادا للنبوة وتجسيداً للإمامة، إن غاية بطلة كربلاء تتضمن قصداً تأثيرياً، بنية تحويل أو تعديل وجهة تفكيرهم داخل مسار تواصلي غير إلزامي (امينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب ـ في ضوء البلاغة الجديدة ٢٠١١ م:١٤٣)، وبذلك فقد كشفت الغطاء عن الحقائق المخفية عن الحاضرين في ذلك المجلس الذي يحتوي على شخصيات أماتت قلوبها الشهوات، وغمرها انواع الفجور، فصاروا لا يعرفون الحق من الباطل، وتستمر في خطبتها، فتقول:

أظننت يا يزيد حين أخذت علينا اقطار الأرض،

وضيقت علينا آفاق السماء، فأصبحنا لك في إسار، نُساقُ إليك سوقاً في قِطار، وأنت علينا ذو اقتدار، أنّ بنا من الله هواناً، وعليك مِنه كرامةً، وامتناناً،.....، فمهلاً مهلاً، لا تَطش جهلاً.

أمِنَ العدِلِ يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقُك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجُههن،...، وليس مَعهن من رجالهنّ ولي، ولا من حُماتهنّ حَمي، عُتُواً مِنك على الله، وجحوداً لرسول الله، ودفعاً لِما جاء به من عِند الله.... (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٣٩٨ـ٣٩٩)

ترتفع نبرة الغضب والتحدي عند بطلة كربلاء، محملة خطابها معنى الادانة، فجاء النص مفعماً بالإقناع مرتكزة إلى تقنية الاستفهام، التي كررتها مرات عدة، لتخرج عن الفعل اللغوي، بحيث إن الاستفهام هنا لا يراد لذاته، إنما لدفع الخطاب باتجاه ما تريده فتجعل من يزيد (لعنة الله عليه)، يشعر بالعجز والضعف، فضلاً عن تصحيح المسار مرتكزة إلى ارجاع الناس إلى الاعتقاد بحرمة محمد وآل بيته، وإن الذي جرى عليهم وسوقهم كما تساق الاسارى ليس لكونهم هينين على الله تعالى، فتثبت سبب تمسكها بالله، فالعلاقة مع الله هي مصدر القوة والعزيمة، لذلك تلجأ إلى الله العزيز المنتقم بالدعاء، فتقول: اللهُم خُذّ بِحقّنا، وانتقم من ظالِمِنا، واحلُل غضّبك على من سفَكَ دِماءنا، ونقضَ ذِمارنا، وقتل حُماتنا (محمد القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد:٤٠١)،.....

مع أنّ النص لا يحتمل في أدائه الإقناعي والايصالي الأسلوب الجدلي، إلاّ أن الوظيفة الضاغطة فيه تنحصر داخل إطار القوة الاستفزازية بالدرجة الأولى، لتفعيل التجاوب العقلي القائم على الاستثارات النفسية والانفعالية، وبذلك فقد استطاعت توظيف هذا الدعاء، لإيصال متلقيها إلى قاعدة استدلالية مفيدة من الثقافة التي استقتها من جدها رسول اللهﷺ، وذلك بترجمة قولهﷺ:»إن قاتل الحسين بن علي، في تابوت من نار، عليه نصف عذاب أهل الدنيا، وله ريح يتعوذ أهل النار إلى ربهم من شدة نتنه، وهو فيها خالد ذائق العذاب الاليم» (ابو جعفر محمد بن علي القمي الشيخ الصدوق، عيون اخبار الرضا،، ١٩٥٨ م، ج٢:٤٧).

وبذلك فقد احبطت محاولات يزيد الانفعالية اليائسة، فكانت بطلة كربلاء تتابع إلحاق الفشل بيزيد بن معاوية(لعنة الله عليه)، وصولاً إلى إدخال حالة الذعر على القادة والجند مع سيطرة اليأس والإحباط عليهم، وبذلك فقد استطاعت الانتصار على الجهل والفساد والظلم وإصلاح الإنسان بوساطة السلاح النفسي العقائدي، مستعينة بالله سبحانه وتعالى والاعتداد به.

الخاتمة

١. وجود كفاءة في الخطاب الإقناعي في خطب السيدة زينب عليها السلام، بكل ما أوتي من ادوات خطابية، للإعلان عن مشروع نصّه القائم على بلاغة الخطاب الإقناعي والبرهاني، استطاعت من خلاله، أن تثبت جذور الحق الذي خرج لأجلها سيد الشهداء الحسين عليه السلام، ولتحقيق الإنجاز في إكمال رسالة اخيها في حفظ الدين وفضح يزيد وأعوانه.

٢. استطاعت بطلة كربلاء تقديم مادة دلالية مشحونة بطاقة تأثيرية واستمالة عقليين، فكانت تخاطب العامة من الناس بالخطاب العقلي، فلا يجد الإنسان السوي سوى الانجذاب لعقيدة الحسين عليه السلام، والتمسك بها وتعبئة الاجواء لانطلاق الثورات ضد يزيد وأعوانه وبذلك فقد تمكنت من الثأر لابي عبد الله الحسين عليه السلام.

٣. كانت السيدة زينب عليها السلام، تعرف المخاطب في كل خطبة لها، فلو لاحظنا خطبتها في الكوفة ؛ لوجدنا أن المخاطبين في الكوفة هم فئات مختلفة من العوام فوجهت خطابها لهم عبر تصعيد الوظيفة الإقناعية وتفعيل التجاوب العقلي القائم على الفهم والادراك؛ فاستعملت تقانة الاستفهام، لمحاصرتهم وإلزامهم على الاجابة والاقرار بالمقتضيات الناشئة عن قتلهم ابن بنت رسول الله، وبذلك تدفعهم إلى الإقرار بأنهم شر طبقات البشر، فهم عملاء بني أمية وأرجس جميع البشر.

٤. استعانت السيدة زينب عليها السلام ـ في خطابها مع يزيد ـ بمبدأ الحرب النفسية، فكانت الوظيفة الضاغطة فيه تنحصر داخل إطار القوة الاستفزازية بالدرجة الأولى، لتفعيل التجاوب العقلي القائم على الاستثارات النفسية والانفعالية، لإيصال متلقيها إلى قاعدة استدلالية، فكانت تتابع إلحاق الفشل بيزيد (لعنه الله عليه)، وصولاً إلى إدخال حالة الذعر على القادة والجند، وبذلك فقد استطاعت الانتصار على الفساد والظلم بوساطة السلاح النفسي العقائدي، مستعينة بالله سبحانه وتعالى.

المصادر

- القران الكريم.

١. ابراهيم ابو عرقوب، الاتصال الانساني ودوره في التعامل الاجتماعي، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الاردن، ١٩٩٣.

٢. ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨.

٣. ارسطوطاليس: الخطابة، ترجمة ابراهيم سلامة، مكتبة الانجلو المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٥٣.

٤. ابن هشام الانصاري، مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، تح وشرح: عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية، الكويت، ط١، ٢٠٠١.

٥. امينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب ـ في ضوء البلاغة الجديدة ـ شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ٢٠١١.

٦. بليث، البلاغة والاسلوبية نحو تحليل سيمائي لتحليل

النص، ترجمة محمد العمري، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٩.

٧.علي بلبع، التداولية البعد الثالث في سيميو طيقا موريس، مجلة فصول الهيئة المصرية لعمل الكتاب، القاهرة، العدد(٦٦)، ٢٠٠٥.

٨. كاترين هالبيرن، الهوية(الفرد، الجماعة، المجتمع)، ترجمة ابراهيم صحراوي، دار التنوير، الجزائر،ط١، ٢٠١٥.

٩.محمد العمري، اسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، المغرب، ٢٠١٣.

١٠.محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة الدراسات، عدد (٥)، ١٩٩١.

١١. محمد الناصر العجمي، اجتياز الحدود في مسائلة مفهوم الخطاب السجالي، المطبعة المغربية لطباعة واشهار الكتاب، ط١،تونس، ١٠١٠.

١٢. محمد بن احمد بن عثمان شمس الدين الذهبي، سير اعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الارناؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥.

١٣. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢.

١٤.محمد كاظم القزويني، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد، حققه وعلق عليه ولده السيد مصطفى القزويني، دار المرتضى.

١٥. محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي(دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية)، افريقيا الشرق، المغرب، (د.ت).

١٦. مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لطاهرة الافعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥.

١٧.نبيل منصور، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للنشر، ط١،الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٧.